

الجسد الأنثوي: حقل للصراع مع الذات

The feminine body as a ground of self-conflict

خلود السباعي^{*} . جامعة الحسن الثاني. الدار البيضاء. المغرب

khosbai@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/06/15 تاريخ القبول: 2019/09/23 تاريخ النشر: 2020/08/25

Abstract :

The feminine body has represented, throughout the history of patriarchal society, a social category that has suffered from marginalization and exclusion. This pressure has been so strong that women ended internalizing the pejorative men's perception as well as hindering their capacity to forge a positive image of their body. Women had to wait until the beginning of the second half of the XX century to see these representations changing, with all their resulting impact on women's status and conditions of live.

In Many regions of the World, women have benefited from schooling, training and work in public sphere. These important achievements have provided them with new emancipatory rights that are being increasingly accepted and reinforced. They are contributing to foster their tendency to defend new identity feminine values, whether individual or relational. However, the question that seems to us appropriate here is whether these changes contribute to free women from the body constraint, allowing them to forge positive perceptions of it, or keep them in the prevailing self-negative image ?

الملخص:

لقد مثل الجسد الأنثوي على مر تاريخ المجتمعات الذكورية، مجالا لتهميش المرأة وإقصائها. مما ساهم في تقمص النساء أنفسهن لهذه النظرة وعرقل على المستوى السيكولوجي تمكنهن من بلورة تمثلات إيجابية عن "صورة الجسد". إلا أن نسبة هامة من هذه التمثلات، قد عرف منذ مطلع النصف الثاني من القرن العشرين، تحولات اجتماعية هامة، انعكست بشكل واضح على وضعية النساء وظروف عيشهن، وذلك بدرجات متفاوتة.

فلقد تمكنت النساء في مناطق متعددة من العالم بفعل التمدس، التأهيل، والشغل، من الحصول على نسبة هامة من الحقوق وتحقيق قدر لا يستهان به من المكتسبات. مما ساهم في سعيهن نحو الدفاع عن قيم جديدة ترتبط بالهوية الأنثوية، سواء في شقها الفردي أو العلائقي. إلا أن السؤال الذي يطرح هنا هو إلى أي حد ساهمت هذه التحولات في تخليص المرأة من وثن أو قيد الجسد؟ وتمكينها من بلورة تمثلات إيجابية عن "صورة الجسد"؟

^{*} المؤلف المرسل: خلود السباعي، الايميل: khosbai@gmail.com

مقدمة:

يمثل الجسد عمق كل تجربة إنسانية. فمن خلاله وعبره ينبعث الشعور بالهوية الذي يمنح الإحساس بالوجود والتفرد، ويمكن الشخص من تنشئته لذاته وفقا للسياق السوسيو-ثقافي الذي يعيش فيه بغرض تحقيق الانسجام والتأقلم. فالجسد هو الذي يربطنا بالحياة، إنه نقطة التقاء الثقافة بالطبيعة، ووسيلتنا الأولى للتعبير والتخاطب والدخول في العلاقة مع الآخر. إلا أن إدراك الشخص لجسده، لا يقف عند حدود التعامل معه كمعطى بيولوجي، وإنما يتعدى ذلك لكي يصبح مجالا لتقييم الذات وتقديرها، بكيفية قد تسمح له بتحقيق التوازن والانخراط ضمن تفاعلات الحياة اليومية أو العكس. ومن هنا أهمية الوقوف على مختلف الاتجاهات الشخصية المبورة نحو هذا الحقل الحميمي، بما قد تتضمنه من افعالات، رغبات، وعواطف. وبناء على ذلك، يفضل علماء النفس اعتماد مصطلح "صورة الجسد"، والتي يقصد بها مختلف التمثيلات الذهنية المبورة من لدن الشخص نحو جسده (Raich,2000,P.24). إنها عبارة عن إنشاء معقد ناتج عن تفاعل كل من المدركات الحسية والعقلية والعاطفية، مع عدد من المعطيات الاجتماعية الثقافية ضمن نسق متكامل، يعكس درجة تقدير الشخص لذاته وتقييمها.

وترتبط "صورة الجسد"، بكل من علم النفس من جهة والطب النفسي من جهة ثانية، لما لها من تأثير بالغ على توازن الشخصية ووقايتها من المرض. إذ غالبا ما تمثل معطى أساسي في فهم وتعيين أبرز محددات التوازن السيكولوجي، وتفسير بعض الاضطرابات المرتبطة بسلوكيات العناية بالجسد من جهة، والاندماج الاجتماعي من جهة ثانية. ويعرف "P.Childer" صورة الجسد بأنها صورة جسدنا الخاص التي نشكلها في فكرنا (منى، 2013، ص53). وبناء على ذلك، فهي ليست معطى موضوعي ولا حدثا واقعيا، وإنما تقبيل للذات ناتج عن معادلة معقدة تربط تأثيرات الوسط الاجتماعي والثقافي بمختلف تجارب الفرد وطريقة تنشئته (السباعي، 2011، ص25). لذلك يؤكد P.Childer بأنه "لا وجود لصورة الجسد دون وجود شخصية معينة" (Broyer,2002 ,P.85). وفي نفس السياق يشير Baile(Alvarado,2011,P.02) بأن صورة الجسد هي إنشاء سيكولوجي معقد، يحيل على تصور الذات في بعدها الجسدي والمظهري منه على وجه الخصوص، لما يتضمنه

من تمثلات ذات أبعاد انفعالية معرفية وسلوكية. وفي هذا السياق، يتم تعيين مكونات صورة الجسد من خلال تقسيمها إلى معطيات أساسية هي كالآتي:

1. **معطيات إدراكية:** تعكس كيفية إدراك الشخص لجسده في شكله الخارجي سواء في بعده الكلي، (من حيث الحجم، الوزن، الطول...) وأيضا في بعده الجزئي من خلال الانتباه إلى تفاصيل أعضائه (شكل الأنف، الشعر، الفم...) الشيء الذي ينتهي به إلى تكوين اتجاهات إيجابية أو سلبية عن جسده، تؤدي به في النهاية إلى قبول هذا الجسد أو رفضه، أو الرغبة في تعديله .
2. **معطيات معرفية عاطفية:** وتتمثل في مختلف الاتجاهات، المشاعر، الانفعالات، الأفكار والتقييمات التي يوقظها هذا الجسد. إنها تعكس مجمل ما يخلفه إدراك الجسد لدى صاحبه من لحظات المتعة والرضى، أو الرفض والتدمير وعدم القبول .
3. **معطيات سلوكية:** وهي التي تنتج عن المعطيات السابقة، فتتظاهر على شكل سلوكيات تعكس مختلف الإدراكات والمشاعر المبلورة عن الجسد الشخصي. والتي قد تدفع بصاحبها إلى الرغبة في إظهار هذا الجسد وعرضه والتباهي به، أو ميله نحو إخائه وتحاشي كل ما من شأنه أن يعمل على كشفه أو الإعلان عنه .

وتمثل هذه المعطيات حسب Rosen (Toro,1999,P.137) أحد أبرز مكونات صورة الجسد، مشيرا إلى أن كل أشكال الاضطراب التي يمكن أن تلحق "بصورة الجسد"، هي بمثابة انعكاس لاضطرابات حاصلة على المستوى المعرفي أو العاطفي أو السلوكي. مما يؤكد في نظره، مدى ارتباط صورة الجسد بالإدراكات الشخصية للفرد، وبما يمكن أن تثيره من مشاعر تنعكس بشكل إيجابي أو سلبي على مختلف سلوكياته ضمن معيشته اليومي. وكلما تعلق الأمر بتمثلات وإدراكات سلبية يبلورها الشخص بشكل يومي عن صورته لجسده، كلما صار من المحتمل أن تصبح بفعل التكرار بمثابة "انشغالات" أو "هموم" مترسخة في ذهنه منعكسة على سلوكياته، ومن هنا طابعاها المرضي (Salaberria,2007,P.174).

إذ غالبا ما يقوم الشخص في مثل هذه الحالات ببلورة عدد من التمثلات السلبية عن جسده، نتيجة إدراكه لبعض المناطق أو الأعضاء من جسده كعيوب أو نقائص. مما قد يخلق لديه "انشغالات وهمية" تنعكس بكيفية يومية على سلوكياته، وذلك بسبب رفضه أو قلقه أو

انزعاجه من صورة جسده. ولقد أجريت في هذا المجال دراسات متعددة (Toro, 1999, 314)، بينت مدى خطورة انعكاسات تأثيرات هذه الإدراكات السلبية لصورة الجسد، على الصحة النفسية والعقلية للشخص، ومن بينها، السكيزوفرينيا، الاكتئاب، اضطرابات الأنوريكسيا أو البوليميا، ثم بعض الاضطرابات الجنسية.

وفي ظل هذا الحديث عن صورة الجسد كمعطى سيكو-اجتماعي ناتج عن تفاعل ما هو فردي ذاتي حميمي بما هو اجتماعي ثقافي مكتسب، يأتي اهتمامنا بالجسد الأنثوي. هذا الأخير الذي مثل على مر التاريخ عنوان كينونة المرأة ووجودها. فلقد ارتبطت الأنوثة على مر التاريخ بمجموعة من الخصائص التي تحيل على ما هو جسدي، سواء في بعده الوظيفي المرتبط بالإنجاب، أو في بعده الجمالي المرتبط بالإغراء، أو في بعده القيمي الذي يجعل من الجسد الأنثوي خطراً محمداً لعرض الرجال وشرف العائلة وسمعتها. هذه التمثلات التي فرضت أن تحتل النساء على مر التاريخ المرتبة الثانية بعد الرجال، وبأن يوجدن في مكان الظل ولا تقدر مجهوداتهن بالشكل الصحيح أو العادل. حيث تم إبعادهن عن مراكز القرار والشأن العام والسياسة والتعليم ... في مقابل حصرهن ضمن المجالات الحميمة، والأمكنة الداخلية، ومواضيع تم اعتبارها تافهة. مما أثر على إمكانياتهن، وحال بشكل أو بآخر دون بلورتهن لكفاءتهن كفاعات مكتملات المواطنة. الشيء الذي سوف يخلق لدى عدد منهن الاقتناع بضعف مؤهلاتهن مقارنة بالرجال (توفيق، 2010، ب ص)، والاستكانة إلى هذه المرتبة الثانوية والتأقلم معها باعتبارها وضعاً مميزاً للأنوثة.

إلا أن نسبة هامة من هذه التمثلات والأوضاع، قد عرف منذ بداية النصف الثاني من القرن العشرين، تحولات اجتماعية هائلة انعكست بشكل واضح على وضعية النساء وظروف عيشهن، وذلك بدرجات متفاوتة. بحيث يمكن القول بأن أبرز ما يميز المجتمعات المعاصرة هو التحولات الطارئة على أوضاع النساء. فلم تعرف الإنسانية عبر تاريخها الطويل، تحولات كبيرة بسرعة مذهلة، كتلك التي مست وضعية النساء وحقوقهن منذ أواسط القرن العشرين. فلقد كانت النساء إلى عهد قريب يصنفن من ضمن فئات "العبيد"، كما كان أقصى ما يطمحن إليه هو الاعتراف بوجودهن كأهبات وزوجات. إلا أن هذه الأوضاع قد عرفت تحولات قوية، جعلت نسبة هامة من النساء المعاصرات يتمتعن بقدر هام من حقوقهن كمواطنات، ويسعين إلى المطالبة أكثر فأكثر بالاعتراف والانصاف والمساواة.

فبعد "عالم الحريم"، أصبح النساء ينافسن الرجال في مختلف المجالات المتعلقة بالشأن العام، السياسة، القضاء، العلوم بجميع فروعها وتخصصاتها، إذ لم تعد هناك مجالات ممنوعة على النساء إلا في بعض الحالات النادرة. واستنادا إلى نوعية هذه التحولات الاجتماعية ووتيرتها، كثيرا ما يتم نعت هذه الفترة التاريخية والتي تنطلق من أواسط القرن 20 بأنها "قرن النساء". قرن عرف انتفاضات واسعة للنساء، غيرت من وضعهن وهويتهن، وانعكست بشكل واضح على طبيعة الأدوار الجنسية ضمن مختلف المؤسسات الاجتماعية وفي مقدمتها مؤسسة الأسرة. ولعل أهم ما يميز هذه التحولات، هو كونها قد غيرت من طبيعة العلاقات والأدوار الاجتماعية في الحاضر، وسوف ينتقل صداها إلى المستقبل. فلقد عرفت بعض الدول الغربية تحولات عميقة على هذا المستوى، يمكن أن نقول بأن نتائجها تشكل قطيعة تامة مع تاريخ النساء.

وبفعل ذلك، سوف تفتح أبواب عالم طالما بات محرمًا على النساء، ألا وهو عالم الفردانية والحرية. هذا العالم المفاهيمي الذي يمنح الفرد حرية تحكمه في جسده، وتسييره لما هو فردي وشخصي بكيفية مستقلة، كما يسمح ببناء الهوية وفقا لاختيارات شخصية (Lungo, 2008, P.19).

لقد تمكنت النساء في مناطق متعددة من العالم من ولوج عالم "الفردانية" والاستقلالية بفعل التمدن، التأهيل، والشغل. فانتقلن نتيجة ذلك من المطالبة بالحقوق، إلى الدفاع عن قيم جديدة ترتبط بالهوية الأنثوية بما تتضمنه من تمثيلات جديدة عن الجسد الأنثوي من جهة، وبما تحيل عليه من أنساق علائقية مع العالم والذات من جهة ثانية. إلا أن السؤال الذي يطرح هنا هو: إذا كانت النساء قد حققت قفزة هامة على المستوى السوسيو-اقتصادي والحقوق، فإلى أي حد تمكن بفعل ذلك من بلورة تمثيلات إيجابية عن "صورة الجسد"؟ ثم إلى أي حد ساهمت هذه التحولات والأوضاع الحداثية المعاصرة في تخليص المرأة من قيد الجسد، وتمكينها من تحقيق الاستقرار والاطمئنان الوجداني بعيدا عن مرجعيات العقلية الذكورية؟

سعيًا نحو الإجابة عن هذه التساؤلات، سوف نقف عند مجال أساسي شكل على مر التاريخ خصوصية أنثوية بامتياز، ألا وهو مجال التجميل. مما جعل من الاهتمام بالجمالية أحد أبرز

محددات الأنوثة على المستوى الاجتماعي، والمهيكله لصورة الجسد لدى النساء على المستوى السيكولوجي.

الموضة ووحشية التجميل :

يمثل عالم التجميل والموضة في الفترة الراهنة، أحد أبرز المجالات الساعية إلى تأزم علاقة المرأة بجسدها، والدفع بها نحو رفض صورة الجسد والانشغال بها وعليها كمحدد أساسي لهويتها. وذلك بسبب ما عرفه مجال التجميل بفعل التطور التكنولوجي من قيم ومرجعيات جديدة، انعكست بشكل واضح على معيش النساء وتمثلاتهم "صورة الجسد". هذه الصورة التي تمت إعادة هيكلتها بفعل تطور وسائل الدعاية والإعلام، بشكل لم يعد فيه الجسد مجرد معطى بيولوجي أو توليفة لأعضاء ووظائف، وإنما عبارة عن إبداع شخصي، ونتيجة لمجموعة من المجهودات المادية والمعنوية، هذه المجهودات التي تعكس مدى النجاح في تقديم وعرض الجسد بشكل جديد مختلف عن شكله الأصلي أو الطبيعي (Maisonnette,1981,P.73)، ومن ثمة النجاح أيضا في التماهي مع صورة "الجسد المثالي".

واستنادا إلى هذا المنظور أصبح الجسد الأنثوي بمثابة ساحة للقتال على مستويات متعددة. أصبح ضحية الرجيم، الأحذية العالية، الرياضات التخسيسية، الألبسة الضيقة والضاغطة، أشكال من الشباب الغير مريحة والتي قد تثير حساسية جلدية معينة، عمليات تجميلية، مواد وأصباغ كيميائية لإزالة العرق والروائح الكريهة والجلد الناشف، والشعر الزائد، واللائحة طويلة. فلقد أصبح النساء يشتريين ويستهلكن على هذا المستوى، بشكل مستمر وغير مسبوق في التاريخ، وذلك بسبب التغيرات المتعاقبة على المظهر الخارجي، والتي لا نجد لها أي منطق أو تبرير آخر غير تغير الموضة وحقبة إتباع الصيحات الجديدة.

وفي ظل هذه التحولات المتعاقبة بفعل اقتصاد الموضة، لم تعد نسبة هامة من النساء يسترحن لصورة أجسادهن في شكلها الطبيعي. فلقد أصبح من اللازم بالنسبة لعدد كبير منهن إدخال بعض التعديلات على شكل الجسد ومظهره، كنتيجة لسيرورة مقارنة الذات بالنماذج الاستثنائية المتجددة، التي تحاصرهن باستمرار. وبالنظر إلى ما يطبع هذه الصور من كمالية إستثنائية فائقة، فإنها قد أصبحت تخلق لدى نسبة هامة منهن إحساسا دائما بعدم

الرضى والتقبل للجسد الشخصي، مع سعيين في المقابل إلى البحث عن سبل إعادة ترميم هذا الجسد وتجميله حتى تتلاءم والوضع "الواقعي" للجمال. مما يجعل من الجسد حقلا مستمرا للصراع وعدم الارتياح ومصدرا لخلق إحساس عميق بالرفض والإقصاء. وذلك ما سماه « *Giddens* » (Michela,2002,P.15) "باستلاب الجسد"، على اعتبار أن ما يميز المجتمعات المعاصرة مقارنة بغيرها في نظره، هو سعيها إلى وضع نموذج موحد ووحيد "للجسد المثالي"، يقوم على إقصاء وتهميش كل من يرفضه أو يتعارض معه. مما يبرز في نظره، بأننا أمام مشروع حقيقي للاستلاب، يقوم على أساس إعادة "إنتاج" الجسد وفقا لقوانين السوق، في مقابل سعيه إلى تعميق الإحساس بالذنب لدى كل من انحرف عن هذه القوانين أو ابتعد عنها.

ومن بين أبرز معالم هذا الاستلاب، رغبة النساء الملحة في ولوج هذا العالم وبذهلن لمجهودات مادية ومعنوية جبارة، من أجل التشبه بهذه النماذج الاستهلاكية المبهرة، أو على الأقل متابعتها والفرجة عليها. غافلات أو متغافلات عن زيف هذا الجمال، وبعده المثالي الناتج عن ارتباطه بخدع التصوير ورتوشات الحاسوب، حيث يمثل الحضور المكثف لهذه النماذج، عاملا مساعدا إلى إضفاء طابع الواقعية عليها، مما تصبح معه حقيقة واقعية أو على الأقل "إمكانية قابلة للتحقق" مادامت قد تجسدت في عدد من العارضات والفنانات والمذيعات وغيرهن من نساء الميديا. الشيء الذي يدفع بعدد من النساء نحو مقارنة الذات بهذه النماذج والسعي نحو تقليدهن كل بدرجة معينة. وذلك بدء باستهلاكهن اليومي لبرامج التجميل، وانشغالهن بمتابعة الصيحات عبر مختلف القنوات، التقيد ببعض أنواع الريجيم بما ينتج عن ذلك من أشكال الحرمان، اقتناء عدد من المنتجات التجميلية و ما يتبعها من اكسسوارات... وكلما ارتفع سقف المجهودات المبذولة، في مقابل عدم الحصول على المكافآت المرجوة، كلما صار من المحتمل أن يعم الإحساس بالفشل ومن ثمة الشعور بالذنب والإحباط وكراهية الذات. وتؤكد مختلف النظريات المتعلقة بصورة الجسد، مدى ارتباط التقييم السلبي لصورة الجسد بالاختلالات الصحية سواء في بعدها المادي أو المعنوي. فالجسد الذي يعتقد صاحبه أنه غير مرغوب فيه، يمثل مصدرا لكثير من المخاوف التي قد تتحول إلى حالة مرضية. ذلك أن الذات المسكونة بالقلق، غالبا ما تميل إلى تحقير واستصغار نفسها، حيث يؤكد البعض وجود علاقة مباشرة بين عدم الرضا الجسدي والقلق (سعيد، 2009، ص183).

ولعل ذلك ما يدفع بنسبة من النساء على اختلاف سنهن وأوضاعهن السوسيو-ثقافية، إلى نهج بعض السلوكيات الهستيرية أحيانا والانحرافيه أحيانا أخرى وعلى رأسها "الإدمان"، والانغماس في هوس الاستهلاك. مما يفضي بهن إلى الوقوع في حلقة مفرغة، تنطلق من اللهاث وراء منتجات معينة لتحقيق غايات تجميلية ما، ثم عدم بلوغ النتائج أو المكافئات المرجوة، لكي يتم السعي نحو تغيير المنتجات واقتناء ماركات أكثر جدة وفعالية، من أصباغ وكريمات وعطور وزيوت، مع التركيز على أنواعها، أسماؤها، الرغبة في تجميعها... وهكذا دواليك. هذا دون أن نتحدث عما تتطلبه كل الممارسات التجميلية التي تعتبر "ناجحة" من صيانة وعناية دقيقة، لضمان ديمومتها واستقرارها ومكافئتها لزحف الزمن والسنين. وفي ظل هذه الحلقة المفرغة، تغرق نسبة هامة من النساء، وذلك إلى درجة أصبح معها التسوق وارتياح صالونات وأماكن الصيانة والحلاقة والتجميل، يستأثر بالقسط الوافر من أموالهن، أوقاثن وهتماماتهن. وقد يصل الأمر في بعض الأحيان (مع عينات من الشابات والمراهقات على وجه الخصوص)، إلى درجة ولوج عدد منهن لعالم البغاء، البرنوغرافيا، والاتجار في أجسادهن وبيعها بطرق مختلفة. وكذلك المغامرة بجياثن وتعرضها للخطر كما هو الأمر في بعض العمليات التجميلية، أو بعض السلوكيات الاضطرابية كما في حالات الأنوريكسيا. كل ذلك من أجل بلوغ الشعور بالرضا والارتياح "لصورة الجسد".

هذا دون أن نتحدث عما يمكن أن يثيره هذا الهوس نحو تقليد النماذج الجمالية المثالية، من اضطرابات سيكولوجية بسبب اختلال وغموض سيرورات التقمص، والتي قد يتم فيها الخلط ما بين الواقع والخيال، ما بين الجسد كموضوع، والجسد كغربة نرجسية مرتبطة بسلعة معينة. على اعتبار، بأن ما يؤسس الرضا الشخصي ليس الشكل الفعلي للجسد، وإنما الشكل المتخيل الذي يستبطنه الفرد عن نفسه (الصادق، 2009، ص183). ويقول أحد الباحثين موضحاً ذلك: "واعتمادا على استعمال الغرائز البشرية، فإن تمني امتلاك مثل ذلك الجسد، يجعل من العقل البشري وعبر تعزيز عمليات الإقناع في الصور الإشهارية المتدفقة، في حالة محاكاة بين الرغبة في الجسد والحاجة المسلعة. ونتيجة لصعوبة الحصول على الجسد المستخدم في العرض، يسعى المشاهد وبشكل غير واع، لخلق محور استبدالي، يدفع لاتخاذ القرار باستخدام السلعة كقرينة لذلك الجسد" (محمد، رقم34، ص122). وكلما تعلق الأمر بالنساء بشكل عام، والمراهقات على وجه التحديد، كلما تعمق هذا الإحساس وتم استدماجه بشكل

يدفع بالفتاة إلى البحث عن التجميل، حتى تكون جميلة لكي تعرض جمالها أمام الآخرين. على اعتبار أن "الجمال" هو صناعة وإنتاج وذكاء، وبناء على ذلك، فالأشخاص الجميلون هم في غالبية الأحيان محظوظون، ومن ثمة "ناجحون".

وفي ظل هذه المعطيات تبرز خطورة التنشئة الاجتماعية للطفلات، التي أصبحت في ظل هذا الاقتصاد الجديد للتجميل والتحرش المستمر لوسائل الإعلام، تسعى في كل مرة أكثر نحو الدفع بالفتيات إلى الانشغال "بصورة الجسد" في وقت مبكر. حيث تفيد الملاحظات العينية لعوالم اللعب والتسلية واللباس الموجه للطفلات، مدى سعي كل من تكنولوجيا واقتصاد التجميل إلى توجيه اهتمامات الطفلات في سن مبكرة نحو الانشغال بصورة الجسد، والرجح بين ضمن عالم الاستيتيكا والعناية بتجميل أجسادهن وفقا لمعايير ومقاييس محددة. ذلك، بدء بعالم اللعب حيث تحتل "دمية باربي" مركز الصدارة، ثم عالم الرسوم المتحركة حيث يتم عرض نماذج نسائية بمقاييس جمالية تعجيزية، هذا فضلا عن وجود سوق خاصة لأدوات التجميل واللباس والإكسسوارات موجهة للطفلات بشكل عام، والمراهقات على وجه الخصوص. ولا حاجة إلى التذكير في هذا السياق، بما يمكن أن ينتج عن ذلك من اضطرابات نفسية قد تكون لها انعكاسات وخيمة على توازن شخصية الفتاة، خاصة وأن الأمر يتعلق بفترة المراهقة وما تتميز به كمرحلة عمرية من حساسية مفرطة لصورة الجسد.

وتمثل اللغة المعتمدة من طرف عدد من النساء عند حديثهن عن "عيوبهن الجسدية"، خير مؤشر على مدى تدني "صورة الجسد" والاستياء منها بكيفية تصل إلى حد كراهية الجسد ومن ثمة كراهية الذات وتحقير باقي إمكانياتها. فمن خلال بعض المقابلات الميدانية مع بعض من الطالبات الجامعيات (خلود، جامعة الحسن الثاني، المحمدية)، قمنا بعدها بتحليل لخطابهن، تبين بأن أغلبهن يستعملن عبارات قذحية لوصف ما سمينه "عيوبهن الجسدية"، من قبيل الوزن، الطول، الشعر، ..الخ. وذلك فضلا عن ميلهن إلى اعتماد بعض التشبيهات المشينة والبذيئة، التي تعكس مدى مبالغتهن في تضخيم وتهويل ما قد يعتبره عيوباً. الشيء الذي أشارت إليه بعض الدراسات التي أجريت في فرنسا (Barreiro, 1998, P.66)، والتي بينت بأن 80% من النساء غير راضيات على صورة الجسد. وبأن كثير منهن محبطات بسبب ارتفاع وزنهن، أو بسبب زحف معالم الشيخوخة على محياهن، وذلك بالرغم من ارتفاع درجاتهن المهنية وتبوئن لمراكز ومناصب هامة. وفي

إطار المقارنة ما بين صورة الجسد لدى كل من الشبان والشابات، بينت نفس الدراسات بأن 75 % من الشباب الجامعيون راضون عن صورة الجسد في مقابل 45 % من الشابات. مما يعكس حضور هاجس الخوف، ومعالم القلق والاضطراب المرتبط بالمظهر الخارجي لدى الفتيات مقارنة بالذكور. هذا الإحساس الذي يبقى من المحتمل في ظل تغيرات الموضة، أن يزداد عمقا كلما تقدمت المرأة في السن. الشيء الذي سينعكس لا محالة على علاقتها بذاتها وبالأخرين، كما قد يحول دون التمكن من إبراز وتطوير سائر القدرات والكفاءات الأخرى.

فأمام هذه الأوضاع يمكننا القول بأنه إذا كانت وحشية التجميل والجمالية تفرض على النساء وذلك بكيفية شعورية وواعية أن يتنازلن عن حقهن في التعامل مع أجسادهن بكل حرية، فليتنا أن ندرك بأنها بالموازاة مع ذلك، تفرض عليهن وبكيفية لاشعورية ولا واعية التنازل عن ذكائهن. مما يدفعنا إلى ضرورة طرح بعض التساؤلات بخصوص الأهداف المتوخاة من وراء خلق وسواس المرأة بمظهرها وجماليتها؟ وعن الجهات المستفيدة من هذا الوضع؟ فلماذا نسعى إلى جعل النساء غير راضيات عن صورة الجسد؟ لماذا نسعى إلى جعلهن محبطات لاهتات ورائ المثال النموذجي للجمال؟ لماذا لا يحصل نفس الشيء مع الرجال؟ لماذا لا نلمس نفس الاهتمام بجمالية الرجل؟

للإجابة عن هذه التساؤلات، لا أجد بدا من استحضار مفهوم "السقف الزجاجي"، كحاجز لا مرئي يسعى إلى ترسيخ التقدير السلبي لصورة الجسد، ومفهوم الذات لدى النساء. وتشير Gloria Steinem (2002, P.253) إلى ذلك، مبرزة بأن التحولات الحداثية المعاصرة، لم تسع إلى مساعدة النساء على التخلص من اعتبارهن لأنفسهن "موضوعا للمشاهدة". فلقد مثل النساء على مر التاريخ، مجالا للمتعة بالنسبة للرجل، ومن ثمة موضوعا للتأمل والمشاهدة والفحص والنظر، ولا يزلن سجينات هذه النظرة الذكورية. فأغلب النساء لازلن يتصرفن إزاء أجسادهن باعتبارها "موضوعا" مطروحا لفرجة الناظر، وبناء على ذلك تجدهن يتوجهن بأجسادهن "لناظر ما" حتى وإن تعلق الأمر بناظر متخيل، فيركزن على مظهرهن، ويجعلن من أنفسهن (بكيفية لاشعورية) موضوعا سلبيا خاضعا للمشاهدة. إنهن المشهد المؤث الذي ينبغي أن يجلب أنظار الآخرين ويستهوهم ويثير إعجابهم. مما تصبح معه العناية بالجسد بالنسبة لعدد منهن ليست خطابا موجها للجسد نفسه قصد تحقيق الارتياح، وإنما هو خطاب موجه للآخر، خطاب موجه للإثارة والإغواء. الشيء الذي يعكس في نظر

هذه الباحثة، استمرارية تبني نسبة هامة من النساء المعاصرات لمنطق الخضوع ومنح الرجال حرية الولوج إلى عالمهن وتقييمهن، وعجزهن عن تحقيق الاستقلالية والتحرر المنشود. "إنه التسليع الكامل للذات، التي غاب عنها المعنى، معنى الوجود ... تاركا النساء ممزقات متفرقات بلا حول ولا قوة، بل مجرد "أشياء" جمالية يتم التحديق فيها وتأملها" (محمد، 2010، ص 185-187). الشيء الذي ينعكس بشكل سلبي على علاقة المرأة بذاتها، قبل أن ينعكس على علاقة النساء بالرجال.

تفيد كل المقاربات السيكلوجية بأنه من الطبيعي أن يهتم الإنسان بمظهره وجاليتيه، بل إنه من علامات الصحة النفسية أن يسعى الشخص إلى تجميل نفسه والعناية بها، لما لصورة الجسد كما رأينا من انعكاسات سيكلوجية هامة على توازن الشخصية وانسجامها (خلود، 2011، ص 42). إلا أن اهتمام النساء في الفترة المعاصرة بالجسد، قد تحول إلى وسواس مؤرق، يعكس نوعا من عدم النضج والمقؤولية، كما يدفع إلى هدر الإمكانيات والطاقات لدى نسبة هامة منهن. هذا دون أن نفعل ما يخفيه هذا الإدمان الاستيتيقي من مصالح اقتصادية تتوسع في كل مرة أكثر لكي يشمل التغذية اللباس، الرياضة، صناعة البرونوغرافيا... فلم يعرف العالم سوقا وتجارة لمواد التجميل والعناية بالجسد كما هو عليه الأمر اليوم. مما أصبح معه الجسد مجالا للصراع من أجل السلطة وأداة فعالة للاستلاب والتسلط. فلقد أصبح المعيش اليومي لأغلب النساء إن لم نقل كلهن مطبوعا بما يمكن أن نسميه "بالترش الإعلامي". هذا الأخير، الذي يمارس بكيفية مقصودة ويومية نوعا من التعدي على كرامة الشخصية وحرمة التوحد مع الذات وتقديرها، من خلال الدفع بالمرأة إلى إخفاء "حقيقة الجسد" وتمويهها تحت غطاء عدد من الأصباغ والمساحيق والمنتجات التجميلية التي تزداد تطورا يوما بعد يوم. الشيء الذي يفسح المجال أمام الحديث عن العنف الإعلامي، وعن الترش السيكلوجي للإعلام، في بعده النسقي الذي يحاصر النساء على اختلاف مستوياتهن واتماءتهن. إننا أمام عنف سيكلوجي وسم قاتل يهدم المرأة في علاقتها بذاتها، وحريتها. عنف يدفع بالمرأة نحو كراهية هذا الجسد الذي يكلفها في كل مرة أكثر، والذي يخذلها في كل مرة أكثر. صحيح أن الحياة عموما هي نوع من الصراع، صراع مع الذات لأجل السيطرة عليها والتحكم في الرغبات من أجل النجاح. إلا أن الصراع مع الجسد من أجل التجميل وبلوغ الكمال، لا يعكس سوى وقوع المرأة في مطب صراعات اصطناعية واهية على المستوى

الواقعي، ومكلفة على المستوى السيكولوجي. وذلك بفعل تحول الجسد لدى نسبة هامة من النساء إلى مجال للتضحية والإحباط والشعور بالإقصاء. علماً بأن الجسد هو مجالنا الحميمي ومنبع الشعور والإحساس والتعبير، إنه المعطى الوحيد الذي به تثبت وجودنا، ونعلن عن بيوغافيتنا وتاريخ حياتنا. وبناء على ذلك، فإنه يبقى من الصعب تحقيق التوافق أو التوازن النفسي في غياب تمثل إيجابي لصورة الجسد.

خاتمة

وخلاصة يمكننا القول، بأنه بالرغم مما حققته النساء المعاصرات من مكتسبات على مستوى الحقوق، فإن ما يلفت الانتباه، هو صعوبة تخلصهن من النظرة الدونية والتقييم السلبي لصورة الجسد. فكثير من الممارسات التقليدية لا تزال مستمرة ومنغرس في حياة النساء، وذلك بالرغم من شيوع أفكار التحرر والتفرد في عصر الانفتاح والعولمة وحقوق الإنسان. مما يدفعنا إلى القول بأن الجسد الذي قيد المرأة عبر التاريخ، هو نفسه الذي لا يزال يقيدنا إلى اليوم، ولم تتغير سوى ملابس القيد وأشكاله. حيث يلاحظ بأن نسبة هامة من المبادئ التي دعت إلى تحرير الجسد الأنثوي، هي التي تساهم بشكل أو بآخر في إخماد هذا الأخير ضمن دوامة من أشكال الاستغلال اعتبر فيها بمثابة "شيء"، وذلك بشكل غير مسبوق في التاريخ.

فبقدر ما نلمس تأكيد المجتمعات المعاصرة على أهمية فاعلية النساء باعتبارهن العنصر الحيوي المحرك للتربية والاقتصاد والتنمية، بقدر ما نلمس المعاناة السيكولوجية للنساء. فلقد تعاضمت أدوار النساء وكثرت مسؤولياتهن، كما تعاضمت انتظارات المجتمع منهن، إلا أن كل ذلك لم يمنع من استمرارية سيادة الثقافة الذكورية، التي لا زالت تمثل عرقلة أساسية تحد من كفاءات النساء وانسجامهن مع ذواتهن بعيداً عن الصور النمطية المتوارثة. مما يسقط النساء في متاهات نفسية واجتماعية، تفسح في بعض الأحيان المجال أمام بعضهم لطرح تساؤل مبطن بكثير من الحبث: إلى أي حد يمكن اعتبار هذه الإكراهات التي تواجهها النساء المعاصرات في علاقاتهن بالجسد، هي إكراهات مفروضة عليهن أم هي من صميم "طبيعة" النساء ؟

قائمة بالمراجع:

1. توفيق مجاهد سالم، "النسوية والعولمة: من الآثام الأولى للبرجوازية إلى النهايات غير السعيدة في العولمة"، مجلة النوع الاجتماعي والتنمية، العدد الرابع، 2010.
2. خلود السباعي، الجسد الأثوي وهوية الجندر، جداول، لبنان، 2011.
3. خلود السباعي، تم إجراء بعض المقابلات الجماعية مع عدد من الطالبات الجامعيات الشابات، بجامعة الحسن الثاني - المحمدية.
4. سعيد بنكراد، الجسد، اللغة وسلطة الأشكال، مجلة علامات، العدد 4، 1995.
5. الصادق راجح، ضريبة السعادة، الإشهار وتوثيق الجسد، عالم الفكر، العدد 4، المجلد 37، أبريل يونيو، 2009، الكويت.
6. محمد أحمد أبو الرب، جمال محمد أبو الرب، "المرأة والجسد: تقنيات حضور المرأة في الإشهار على قناة LBC"، علامات، رقم 34.
7. محمد حسام الدين إسماعيل، الصورة والجسد، دراسات نقدية في الإعلام المعاصر، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2010)؛
8. منى فياض، فح الجسد، (لبنان: دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، 2013)؛

قائمة المراجع الأجنبية:

1. Raich, Rosa -Maria, Imagen corporal, PIRAMIDE, Madrid, 2000.
2. Broyer, Gérard. « Le corp, le moi, le sujet », In, Cliniques du corps sous la direction de Nathalie Dumet et Gérard Broyer, P.U.F, Paris, 2002.
3. Alvarado Stellar, Valerie Samilio Bermudez Kristel, « La bellezadelcuerpoféminino », Wimb. RevEsc de psicologia. Univ de Costa-Rica, 6 (1) 9-2,electronica de estudiantes, 2011.
4. Salaberria. Karmel, Rodriguez. Susana Cruz Soledad, « Percepcion de la imagen corporal »,UPV /EHU, Fac de psicologia, Osasunaz, Sansebastian,2007.
5. Toro, Josep, « El cuerpocomodelito, Ariel Ciencia, Barcelona, 1999.
6. Luengo Lopez, Jordi, Gozos y Ocios de la mujermoderna, ATENEA, Universidad de Malaga, Malaga, 2008.
7. Maisonneuve, Jean. Modèles du corps et psychologie esthétique, PUF, Paris, 1981.

8. Michela, Maria et ParisoliMarzano, Penser le corps, PUF, Paris, 2002.
9. Barreiro, Ana Martinez, La moda en las sociedades modernas, Ed, Tecnos, Madrid, 1998.
10. Entwistle, Joanne, El cuerpo y la moda, Paidos, Barcelona, 2002.